

cultural resistance pattern or racial concentration in the poetry of Bashar ibn Burd.

نسق المقاومة الثقافية* أو التمرکز العرقي في شعر بشار بن برد

أ.م.د. عبد الأمير مطر . حسين عبد نور حسن
كلية التربية للعلوم الانسانية جامعة كربلاء

بحث مستل

المخلص

تحاول هذه الدراسة الموسومة بـ (نسق المقاومة الثقافية أو التمرکز العرقي في شعر بشار بن برد) الحفر في نصوص بشار الشعرية ومحاولة قراءتها قراءة ثقافية لكشف الأنساق الثقافية المضمرّة المتحمكة في شخصية هذا الشاعر ونتاجه الأدبي ، وقد استهدفت هذه الدراسة شعوبية بشار وانعكاسها على ثقافته الشعرية؛ فقد دلت نصوص بشار على شعوبيته وموقفه السلبي من الثقافة العربية والتي وتوجه إليها أشنع أنواع الهجاء والسخرية؛ ولكن ما يناقض هذا أيضاً أنّ له نصوصاً شعرية تقف موقفاً إيجابياً من العرب فيعلن فيها ولائه للعرب وفخره بهذا الانتماء، فيبدو لنا وللقارئ ثمة ازدواجية وتناقض، وهذا كما يبدو لا سبيل لإنكاره أو رده فهو واضح وبدا جلياً في شعره. فقد علل النقاد هذه المواقف المتناقضة ووضعوا لها عدة أسباب ، إلا أنّ قراءتنا تنطلق من أرض مختلفة لتصل إلى نتائج مختلفة أيضاً، فسنبهرهن أنّ بشاراً كانت تحكمه ثقافة نسقية جمعية مهيمنة تتحكم بسلوكه الثقافي والشعري، وقد جاءت هذه المرة على شكل (تمرکز عرقي) أو ما يسميه النقاد بـ (نسق المقاومة الثقافية) تتخذ شكلاً ازدرائياً للآخر (العربي)، فجاءت هذه الدراسة لكي تحاول كشف هذه الثقافة وكيف تم لها تمرير أنساقها ومن ثم إيضاحها. لتأتي الخاتمة محتوية على أهم ما توصل إليه البحث من نتائج.

Abstract

This study tagged trying to in (cultural resistance pattern or racial concentration in the poetry of Bashar ibn Burd) drilling in the texts of Bashar poetic and try to read a cultural reading to uncover the cultural patterns implicit control over the character of this poet and his production literary, this populism study aimed Bashar and reflection on the culture of poetry, texts Bashar has shown his populism and his negative attitude of the Arab culture, which brought to them the worst kinds of diatribe and irony; but what is contrary to this also that his texts of poetry stands a positive attitude towards Arabs declares where his loyalty to the Arabs and proud of this affiliation, it seems to us there and for the reader duplication and contradiction, and this also It seems there is no way for denying or response is clear and was evident in his poetry, the causes of critics these contradictory attitudes and put them several reasons, but our reading off of different land to reach different results, too, will prove that Bashar was governed by a culture of systemic dominant Association controls his cultural and poetic behavior , so his poetry came loaded with systematic meanings take the form of derogatory to the other (Arab), this study came to try to expose this culture and how it passed its formatting and then its illustration .To Come the conclusion containing the most important findings of the research results.

المقدمة

لقد مارست الأنساق الثقافية وبطرق متخفية- أهمها الجمالية- مختلف أنواع الهيمنة على ذهنية المتلقي الفردي أو الجماعي. وربما تحول قسم منها إلى نماذج تُحتذى كأساس للسلوك على الصعيدين الاجتماعي والسياسي . ومن هنا تأتي أهمية النقد الثقافي إذ يعمل على تعرية تلك الأنساق، وفضح زيفها، ورفع الأغطية عنها بعد أن ظلت كامنة في أعماق الخطابات تفعل أفاعيلها من دون رقيب نقدي؛ لانشغال النقد الأدبي بالجمالي، ولقدرة تلك الأنساق على المخاتلة والاختفاء. وهذا ما شجع الباحث على اعتماد نشاط النقد الثقافي في كشف النسق الثقافي المضمر في الخطاب الشعري عند بشار بن برد والمتمثل في نسق التمرکز العرقي (شعوبية بشار) أو ما يطلق عليه النقاد الثقافيون بـ (نسق المقاومة الثقافية*)، فقد دلت كتب التراجم على أنّ بشاراً كان من الشعوبيين، بل كان يقف على رأسهم ، وقد صرحت نصوصه الشعرية بذلك تصريحاً واضحاً، وقد علل النقاد سبب هذا التوجه من لدن الشاعر

بشار بن برد ووضعوا له عدة اسباب. أما دراستنا فقد جاءت لتشخص هذا السلوك تشخيصاً ثقافياً، فتجعله خاضعاً لفلک الأنساق الثقافية التي تحكم حركة المجتمع ودورته الثقافية، لنثبت أنّ بشاراً كان يعيش تحت هيمنة هذه الأنساق ومحرکاتها الواعية أو اللاواعية، وبالتالي انعكست على سلوكه الثقافي وعلى نتاجه الشعري. وقد بنيت خطة البحث على هذه المقدمة، والملخص باللغتين: العربية والانكليزية، و (تمهيد) وضح فيه الباحث مفهوم النسق الثقافي ومركزته في النقد الثقافي، ومن ثم عرض لمحتوى الدراسة، ولنتهي هذه الدراسة بخاتمة وضح فيها الباحث أهم النتائج التي توصل إليها البحث، ومن ثم قائمة بأسماء المصادر والمراجع.

التمهيد: النقد الثقافي ومفهوم النسق

لقد أفاد الدكتور محمد الغدّامي من النموذج الذي قدّمه (رومان ياكوبسون) حول عناصر الرسالة وهذا النموذج يتضمن ستة عناصر للرسالة حتى تكون أدبية وهي: المرسل (الباث) المرسل إليه (المتلقي) الرسالة (اللغوية) وهي تتحرك عبر عنصري (السياق) و(الشفرة) ووسيلة ذلك كلاً (أداة الاتصال)؛ فيما يقترح الغدّامي إضافة عنصر سابع يسميه (العنصر النسقي)، وبعد إضافة هذا العنصر إلى نموذج ياكوبسن ستزيد معه عدد الوظائف الستة المترابطة مع عدد عناصر الرسالة وتكون وظائف العناصر كالآتي⁽¹⁾

المرسل: وظيفته انفعالية، وجدانية (حين يركز الخطاب على المرسل)، والمرسل إليه: وظيفته تلقي، إخبار، والرسالة وظيفتها جمالية، أدبية، شاعرية (حين يكون التركيز على الرسالة نفسها). والسياق وظيفته مرجعية، وأداة الاتصال وظيفتها تنبيهية، والشفرة: وظيفتها معجمية (اسلوبية). وأخيراً العنصر السابع وهو العنصر النسقي: وظيفته نسقية (ثقافية).

فبالإضافة العنصر النسقي وتحديد وظيفته يمكننا القول أننا أصبحنا نخوض في مجال ونشاط النقد الثقافي؛ فالنقد الثقافي يرى أنّ كلّ خطاب إنّما يقوم على أنظمة ظاهرة وأخرى مضمرة ينبغي الاشتغال عليها بغية الكشف عن الأنساق الثقافية، وهذه الأنظمة/ الأنساق يتم كشفها حينما يُحلل النص الأدبي في ضوء السياق الطبقي أو السياسي الذي نشأ بتأثير ظروفه فيصبح " النص علامة ثقافية تحقق دلالتها فقط داخل السياق الثقافي السياسي الذي أنتجها⁽²⁾ كون النسق الثقافي هو الوظيفة التحكيمية في سلوك الافراد، وهو الوظيفة الأهم من منظور (غرينس) حيث يعمل النسق الثقافي بوصفه مرشداً للعمل ومسوّدة للسلوك بحيث يكون الفرد محكوماً بالتصرف على وفق ما يمليه عليه النسق الثقافي الذي يؤمن به، أي شيء أشبه بالبرمجة الثقافية⁽³⁾ وهذا ما دعا الناقد عبد الله الغدّامي أنّ يركز على مفهوم النسق، بحيث جعله مفهوماً مركزياً في نقده الثقافي⁽⁴⁾ إذ تشكل الأنساق حجر الزاوية للنقد الثقافي فتشغل المنظومة النقدية الثقافية في كل تنظيراتها على نظرية الأنساق المضمرة. لذا فهمتنا في هذه الدراسة — ومن خلال اعتماد نشاط النقد الثقافي — هي ايضاح نسق المقاومة أو نسق التمركز العرقي (شعوبية بشار) الي أخذت حيزاً واسعاً في نتاجه الشعري. فقد عُرف الشاعر بشار بن برد بشعوبيته وازدراؤه للعرب ولثقافة العربية وسلطاتهم السياسية، ونصوصه الشعرية تُعد دليلاً واضحاً على ذلك التوجه، ولكن ما يناقض ذلك كثرة نصوصه التي تمجد العرب وثقافتهم وسلطاتهم والتي توضح فخره بانتماؤه للعرب عن طريق نظام الولاء، ولكن ما السر وراء هذا التذبذب بين الانتماء وعدمه، بين فخره بالعرب وازدراؤه لهم والتبرم من الانتماء اليهم. وسيكون هذا موضوع الدراسة.

نسقية المقاومة أو التمركز العرقي في شعر بشار بن برد

الفرد هو شخص فعلي، بينما الذات مجموعة أوار تشييدها قيم ثقافية وأيديولوجية سائدة كـ – الإثنية، الطبقة الاجتماعية، العرق — تحوّل الأيديولوجيا الأفراد إلى ذوات، ليست الذوات أناساً فعليين، إنّما توجد فقط من حيث علاقتها بممارسات تفسيرية وتشيد من خلال استخدام إشارات⁽⁵⁾ وبما أنّ " الذات تتأسس باستمرار ولا تثبت على حال"⁽⁶⁾، لذا " يستطيع الفرد أنّ يشغل عدة مواقع للذات بعضها يتناقض فيما بينه؛ ويمكن اعتبار (الهوية) هذا التفاعل بين الذات والموقع"⁽⁷⁾ إنّ طبيعة التحول الأفراد الى ذوات، تحت عنوان هوية أيديولوجية عرقية يؤدي الى ما يسميه الغدّامي بـ " الفرز الاجتماعي"⁽⁸⁾ ويرى فيه مالك بن نبي إنّهُ يكون علاقات اجتماعية فاسدة⁽⁹⁾ فيكون لها نتائجها السريعة في عالم الأفكار وفي عالم الأشياء⁽¹⁰⁾ فتسبب مأساة اجتماعية.

فالتمركز العرقي أيديولوجية سلبية في المجتمعات، ووجود هذا المصطلح دليل على أنّها تجمعات هوياتية، لأنّه يبني على جدلية الصراع بين(الذات والآخر) فيتجادبان أطراف الرفض. تجسيداً لثنائية ضدية تتمثل بـ(علو الذات / دنو الآخر)، وتبني على نظرة الفرد والجماعة إلى ثقافته على أنّها مركز كل شيء، أمّا ثقافة الآخر فهي ثانوية هامشية أو في مركز أدنى، وهذا من شأنه دفع أفراد الجماعة إلى تكوين صورة ذاتية لأنفسهم تتسم بالتفوق والاستعلائية وصورة نمطية للآخرين تتصف بالدونية والاحتقار.

إنّ ظاهرة الرفض القائمة على الجهل بالآخر كونه دونياً ومحتقراً هي ظاهرة مؤسسة في بنى الثقافات المغلقة، ذلك " أنّ الذات المفكرة ليست لها جوهر منفصل عن الكيان البشري الخاص منه والعالم، فهي تقع تحت تأثير وإسقاطات الذات قرباً، وإسقاطات الآخر فوراً وإقصاء"⁽¹¹⁾ وتقود غالباً الى مواقف سلبية منه لأنّها قائمة أساساً على تميّط موروث، وبنى مشيدة مسبقاً⁽¹²⁾ تسعى إلى إقصاء الآخر، وتضخيم الذات ومروراً بالخوف والعنصرية والتخندق الثقافي وانتهاء بالتباعد في الثقافة والزمن، وتجميد صورة الآخر.

يستدعي جدل الصراع بين (الذات والآخر) في أغلب الأحيان انفصلاً بينهما إذ يتمظهر هذا الانفصال في نمطين، أولهما: انفصال اختياري إرادي مصدره الذات الناقية للانفصال عن السلطات المقيدة لها، وثانيهما: انفصال اجباري ذو نزعة اقصائية يقوم به الآخر، يبعد الذات عن محيطه؛ أمّا سبب الانفصال بنوعيه فيعود الى الفشل في إحداث التناغم المطلوب بين الذات والآخر، ويؤدي كلاهما الى نتيجة واحدة هي اغتراب الذات ونفي الآخر ورفضه كلياً من جانب الذات⁽¹³⁾.

يُرجح البحث سبب الاستعلاء (التمركز العرقي) لدى بشار— الشاعر المولى — إلى السبب الثاني وهو: (الانفصال الاجباري)، يفسّره التهميش الذي وقع على بشار من قبل الهوية العربية المتمركزة — التي كان شاعرنا أحد ممثليها ودعاتها، والتي ترتكز

أساساً على فعالية النسقين الثقافيّين (الدين و العرق)* والتي تعمدت الإقصاء والتهميش اتجاه الموالى. يذكر الدكتور نادر كاظم نقلاً عن ترفتان تودوروف: " إنَّ الثقافات التي بلغت درجة متضخمة من الشعور بالذات والتمركز حولها، والتي تمتعت بمركزية دينية تُصَبِّب القيم الخاصة بها بوصفها قيماً كونية شمولية" (14) ما يؤدي إلى " حدوث عملية فرز وتصنيف لمن يتمثل هذه القيم، ومن لا يتمثلها أو يتمثل قيماً أخرى، وسيترتب على هذا حدوث تغيير في مفهوم الإنسان بحيث ينسحب هذا المفهوم على من يتمثل قيم هذه الثقافة وأعرافها ، ومن يختلف عن هذه القيم والاعراف و الأنساق سوف يقصى ويدرج في عداد المخلوقات الوسيطة بين الإنسان والحيوان" (15) ويبدو بسبب هذا المعطى النسقي المتمركز قيل: "لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار أو كلب أو مولى" (16) يرى البحث أنّ تلك المعطيات النسقية/التهميشية التي تُمارس ضد الآخر المنتمي تشكّل له عقدة الارتداد عن هذا الانتماء، وهذا الارتداد يؤدي غالباً إلى إعادة لملمة أوراق الذات تحت هذا مصطلح، من أجل التمركز، ثم تمثيل نسق الاستبداد نفسه؛ وليس ذلك بالأمر المستبعد لأن " المستلب أزاء شيء لا يسترد ما يشعر بفقدته، بل يرتدُّ على معناه وينقلب على مواقفه، كما هو شأن من يشعر بالاستلاب أزاء حريته، فهو يمارس الاستبداد بفكرة الحرية" (17).

كما يرى البحث أنّ بشاراً (الشاعر المولى) المنتمي إلى الهوية العربية ، وممثلاً لأنساقها الثقافية شعرياً - بحسب قانون الولاء، كان يعيش نسق الارتداد جاء نتيجة الإقصاء الذي مورس ضده وضد عرقه، ارتداداً يحمل بين طياته: الأخذ بالنار الثقافي، وهذا الارتداد سيجعل من بشار يعيش ليتقمص ذاتاً أخرى (فارسية) تناقض الذات العربية فيمثلها شعراً وسلوكاً. تحت هذه الذات الجديدة يستهدف بشار الثقافة العربية ويشبّك مع تمثيلات ذات الأسلحة تحت مصطلح: (المقاومة الثقافية) (18)، مما قاده إلى الاصطدام المباشر مع الثقافة العربية المهيمنة، " فليس بالضرورة أن يكون هذا التمثيل أكثر انفتاحاً وتسامحاً تجاه الثقافة المهيمنة، ذلك إنّ التمثيل يعتمد في حقيقته على إساءة التمثيل، وهو بذلك ينتج (أخراً) بحيث يكون هامشياً مقصّياً" (19)، أي محاولاً إيجاد مركزية تحقق له التعالي من جانب وتقويض المركزية العربية من جانب آخر، وهذا أمر طبيعي في الثقافات التي تقوم على الهويات التراثية، لأن عملية المقارنة والمقاييس بين الثقافات قابلة للارتداد على هذه المركزية الذاتية، من حيث إنها تقوم على مقاييس مطلق النسبية، فكلّ يصف بالهمجية ما لا ينتسب لعرقه (20).

فمن خلال استنتاج نصوص بشار الشعرية التي تحمل نسق التمركز العرقي يمكننا أن نلاحظ أنّها تسير باتجاهين: الأول: تقويض نسق التمركز العربي المستند إلى قاعدتي: (الدين والقبيلة). أمّا الثاني: فهو توليد نسق متمركز جديد يستند إلى قيم فارسية (تاريخية عرقية، دينية)، وبذلك يكون هو أكثر نسقية، وأكثر استعداداً لإعادة إنتاج النسق المهيمن وإدامة حياته وهذا ما يؤكد الغدامي، حيث قال: "إنّ المعارضة التي تعبر عن رفضها للنسق المهيمن تتخذ الأساليب السلطوية نفسها، فهي لكي تفصح الفحل تضع أمامه فحلاً أقوى منه، ولا تفعل شيئاً سوى أنّها تسلب القوة من هذا لتعطيها ذلك، وكلّما تواجه فحلان فإنّ أكثرهما نسقية هو الذي ينتصر" (21) ففي ضوء ما تقدم كان لابد من تمثيل آخر باتجاه معاكس يصدر عنه تمركز فارسي لتمثيل ما يسميه الغدامي: هوية المقاومة، أو (صراع الأنساق ونسقية المعارضة) (22) يحدث هذا عندما تصاب المعارضة بعيوب مماثلة لتلك التي عند المؤسسة المهيمنة، وهذا ما مثلته الشعبية التي ظهرت بوادرها في العصر الاموي - عصر الإقصاء الفارسي- فالشعبوية، عند الدكتور أحمد أمين نزعة أرسنقراطية أنشأها الموالى لمحاربة الأرسنقراطية العربية (23) فهي " ليست أكثر من أزمة ثقة بين الطرفين العربي والإيراني، التعالي والتسافل، كان سببه عدم الاحتواء من حيث المنظور الاسلامي" (24). وكانت في بداياتها محاولة لرفع والتميز الذي واجهه الموالى، ولعلّ هذا ما يفسر نشوءها على شكل درجات فهي " تبتدئ معتدلة هادئة، وتنتهي متطرفة عنيفة" (25) يبدو أنّ العنف في المجتمعات النمطية ذات النسق السجالي لا يفاجئنا كثيراً فهو أمر سيكولوجي لا مفر منه لأنّ " الجماهير المغبونة متعطشة بشكل مزمن للقوة في مختلف رموزها وعبر شكلها الأساسيين: البطش والغلبة من ناحية، والعظمة والتعالي من ناحية ثانية" (26) وحسب قانون العنصرية المضادة " فالعنصرية تنتج ما يناقضها من عنصرية ناسخة" (27).

ومن الملفت للنظر أنّ معنى الارتداد في خطابات بشار الشعرية (العرقية) يأخذ محورين:

المحور الاول: الارتداد على الثقافة العربية: والتي مثل بشار أنساقها مسبقاً. ارتداداً يستهدف قيمها سننها عاداتها - طبيعة سلوكها الاجتماعي والمعيشي - ضامناً لذاته ولعرقه التعالي والهيمنة. نلمس هذا في قصيدة بشار وهو يفخر بنسبه الفارسي يقول (28):

عني جـ ميع العـرب
ومن ثـوى في الثـرب
كسرى، وسـاسان أبي
عددت يوماً نـسبي
بتواجه مـع تصب
يجئني لـة بالرـكب

هل من رـسـول مـخـبر
من كـان حياً مـنـهم
جدي الذي أسـمـو بـه
وقيصـر* خـالي إذا
كم لي وكـم لي من أب
أشوس في مجـلسـه

إلى قوله في هجاء العرب:

خـلـف بـعـير جـرب
يثقـبـها من سـعـب
يخبـطـها بالـخـشب

ولا حـذا قـط أبـي
ولا أتـى حـا نـظـلة
ولا أتـى عـرـقـطـة

وقال في القصيدة نفسها:

كلا ولا كـ _____ ان أبي
 أنا مُـ _____ و كُ لم نزل
 نحنُ جلبُ _____ نا الخيل من
 يركبُ شـ _____ رجي قتب
 في سالفاتِ _____ حقب
 بلخُ بغـ _____ الكذب

يسلك الارتداد أساليب وطرقاً متنوعة، أمّا عند الدكتور علي حرب، فيأخذ معنيين: أولهما: "ارتداد زمني نحو الماضي، وثانيهما: ارتداد عقائدي بوصفه خروجاً على الهوية والجماعة"⁽²⁹⁾، نحسب أنّ هذين المعنيين قد مثلهما خطاب بشار في النص أعلاه. وكما سيوضح البحث:

فالارتداد الزمني: استحضره بشار محققاً قدرأ كبيراً من التعالي النسقي " فالإنسان الذي يعاني استلاباً واغتراباً يشعر دوماً بالحنين إلى زمن ما، أو مكان ما، أو حدث ما، يتماهي معه... إنّه يتعلق بشخص أو أسماء من أزمنة مضت" ⁽³⁰⁾، فـ "يجر وراءه كل أزمنته وتواريخه، التي تمثل وعيه وتفعل في فكره" ⁽³¹⁾، بحثاً عن هوية تحقق له التوازن في المعادلة النسقية، فإن لم تكن واقعية فلتكن متخيلة" فقد تشكل أساطير الماضي وحكاياته الملحمية مصدرأ مرجعياً لتشكيل الهوية وبناء النسق بالمادة الضرورية لبقاء مفعوليته"⁽³²⁾، فيستحضر بشار صورة تراثية من مفكرة حروب أسلافه مستندعياً عمقه ومدلوله الفاعل لإثارة الوجدان باستدعائه الماضي وذكرياته التي تدعو الى تازم الصراع واحتدامه، فهو يضع القواعد الاساسية التي يستند عليها نسق التعالي العرقي (كسرى كبير الفرس و قيصر كبير الروم) ثم يدعم هذه القواعد بجمل ثقافية متعالية كقوله: أشوس في مجلسه، يجثى له بالكرب، يتأججه معتصب، وهذه جمل ثقافية تحمل نسق التهديد و البطش والخضوع والإذلال والدونية للإنسان الآخر وحرقة هويته. أمّا الارتداد العقائدي فيقوم على نسف وتسيفه كينونة الآخر (العربي) ففي هذا النص نلمس الصورة النسقية التي الهتمته صفة التعالي، فإن الصراع الذي يضطرم داخل نفسية بشار والنسق الموروث المترسخ في وجدانه من خلال إبداعه الفني أنتج لنا هذا الشعر ذا الصبغة المتعالية التي تفوح منها رائحة الاعتداد بالنفس المفرطة التي تصل الى إلغاء الآخر وتهميشه. يتضح لنا إنّ التمثيلات العرقية في بنية القصيدة تتمحور في حضورها الجدلي حول فكرة الصراع بين نسقين أساسيين، يحاول كلٌ منهما الهيمنة على النماذج الإنسانية عبر تمثيلاتها النصية وهذان النسقان هما: نسق التعالي العربي ونسق المعارضة الفارسية التي يمثلها بشار، إذ يحاول كلٌ نسق أن يؤسس ذاته على حساب الآخر، فيبشار يسعى في هذه القصيدة الى قلب المعادلة النسقية عبر تمثيلاته المختلفة وذلك بغية تفويض مركزية النسق المهيمن (العربي) وتأسيس مركزية ذاتية فارسية تتسم بالمقاومة والرفض. إنّ بشاراً من خلال تمكنه البلاغي يشعرن القيم الإنسانية ويجرحها، ويحيي بدلها قيماً مادية زائلة يعدها أصلاً للارتقاء، وهذا النوع النسقي كما يقول الغدّامي: " يقوم بتوجيه الخطاب والقراء نحو نماذج وأنساق وتصورات يتأسس معها الذوق العام وتتخلق بها الصياغة الذهنية والفنية وتصبح تبعاً لذلك قيماً معتمدة يقاس عليها تحتذى في الحكم والذوق" ⁽³³⁾، إنّه نسق التسلط والاستعلاء، من حيث "إننا في ثقافة نسقية يتساوى الجميع في تمثل هذه النسقية وإعادة انتاجها"⁽³⁴⁾، أنّ الوسط الثقافي الذي تبنى بشاراً وهو يدفعه لمزيد من النرجسية يجني هنا على نفسه في هذه النصوص، " فالثقافة مؤلف نسقي مضمّر كما هو الشأن في أي خطاب أو قول، فإنّ هناك مؤلفين اثنين أحدهما: المؤلف المعهود... والآخر هو الثقافة"⁽³⁵⁾، والتي تتحكم في خطاب المؤلف المعهود. إنّ الشعر هنا يضمّر وراء جمالياته البلاغية ثقافة التراسق العرقي، ويؤسس لثقافات مؤدلجة يقيم عنصرية طائفية، مما يعكس هذا على ثقافة الوعي الجمعي. تتأسس هذه الأبيات على جدلية ثنائية ضدية محورها العرق العربي/العرق الفارسي، والخطاب موجه للآخر العربي جاء مشوباً بنظرة التحدي، إذ يستحدث الشاعر ثقافة الاستعلاء نفسها التي يمارسها النموذج العربي، وهذه إشارة رمزية من الشاعر توضح بأنّ منطوق الاستعلاء، والعنف، والغاء الآخر، هو الحل، وهو المركز، في حين الحلول السلمية والإنسانية تبدو هامشية لا وجود لها في ذهنية ثقافة الشاعر. فيبشار يرفض القيم العربية الراضة لعرقه، ليضع بدلها قيماً أخرى متعالية فهو قد ورث نسق التعالي والتمركز من البيئة التمبينية له المتمثلة بالثقافة الشعرية، وهذه المرة يجد لها مكاناً آخراً وهو المكان العرقي، فيستدعي آباءه وملوكه ودمه الفارسي وبطولاتهم الخيالية.

قال بشار يهجو اعرابياً رداً له لما قاله: ما للمولى والشعر، يقول: (36) الوافر.

أعاذل لا أنامُ على اقتسار
 سأخبرُ فأخبرَ الأعراب عني
 أنا ابنُ الأكرميين أباً وأماً
 نَعَادَى الدُرْمَكِ المنفوطِ عِزّاً
 ونرْكَبُ في الفريدِ إلى النَدَامَى
 أسرتُ وكَم تَقَدَّم من أسيرِ
 إلى أن قال:
 إذا انقلب الزمانُ علّاً لِعَبْدِ
 أحين لبيست بعد العرى خراً
 ونلتُ من الشبارق والقلايا
 ثقأجرُ يا بِن راعية وراع
 وكنت إذا ظمّنت إلى قراح
 ولا ألقى على مولى وجار
 وعنه جينَ بارزَ للفخار
 تَنَارَ عني المَرَازِبُ من طَخَار
 ونشربُ في اللجّين وفي النظار
 وفي الديباج للحرَبِ الحِبار
 يُزِين وجههُ عَقْدَ الإِسَار
 وسفّل بالبطـأريق الكبار
 ونادمَت الكرامَ على العقار؟
 وأعطيت البنفسج في الخمار
 بني الأحرار، حسبك من خسار
 شركتُ الكلب في ذاك الإطـأرار

وَتَرْقُصُ لِلْعَصِيرِ وَاللَّسْمَارِ
وليس بسيد السقوم المكاري
فليأتك غائب في حر نار

ثُرِيْعُ بِخُطْبَةٍ كَسُرِّ الْمَوَالِي
وتغدو في الكراء لنيل زاد
مقامك بيننا دَسُّ عَالِيْنَا

لا شك أن جملة "ما للمولى والشعر" هي صيغة نسقية جاءت من المعجم الفحولي العربي حرصاً على الهوية. إلا أن بشاراً يبدو أنه متمكن هو الآخر من أدواته النسقية، فهو يفاخر بلسان النسق المترسخ في وجدانه، فيقوم بممارسة عيوب مماثلة لتلك التي عند المؤسسة المهيمنة، إنه صراع الأنساق ليس أكثر، موظفاً الأدوات النسقية التي ابتدعها الشعر العربي، وظلت تتكرر عبر تناسلها وتوالدها في ذهن الثقافي "لأن النسق إذا نشأ لا يقف عند حد بل إنه يعبر كل الحدود والفواصل"⁽³⁷⁾.

هذه المعاني العائمة على سطح القصيدة تُضمّر دلالات عميقة ذات أبعاد نسقية، فالمناقب الحميدة التي يتغنى بها الشاعر كقوله: (أنا ابن الأكرمين، تُغاذى الدرمة المنفوط عزاً، ونشرب في اللجين وفي النظار، ونركب في الفريد إلى الندامى، وفي الديباج للحرب) تشي بشعور استعلائي عرقي، فيكون هذا بالمحصلة غائب في عالم النسق المضاد، لذلك فالشاعر يرى في خطابه للذات العربية ذاتاً وهمية، ولا يمكن أن تكون مؤهلة للاستعلاء حتى تنال الرضى والقبول، فهي فاقدة لهويتها التي تمنحها التعالي والهيمنة، وتحتاج لبدل آخر شرعي يتمثل في هذا الحضور الفارسي المتنفذ والمهيمن في فضاءات الزمن والمكان والإنسان" فالتعامل مع الهوية على نحو متعال ثبوتي أحادي، أو بطريقة أصولية طهرانية... يُترجم على الأرض سلوكاً إرهابياً"⁽³⁸⁾، وبالتالي يجعل كل سلطة تخضع لسلطته، وهو خطاب نسقي يتضمن تحذيراً للآخر من مغبة تكريس سياسة التهميش والإقصاء. يقوم تعالي بشار في هذا النص عندما يعقد مقارنة بين حسبه (الفارسي) وحسب الآخر (الاعرابي)، فهو ابن الكرام الذي لا يدنو منه أحد، وابن الأحرار دون منازع، فمفردات مثل: (الكرام، الأحرار، البطاريق) مفردات نسقية تشير إلى التبرم من الانتماء، وتعلن الولاء والتعصب للعرق — ثقافة الولاء هي البنية الفوقية التي تسند بنية العصبية"⁽³⁹⁾، والتي تقوم على التبعية، والمكانة والخطوة، بمعنى أن الولاء نظام عام، تقوم العصبية بوصفها آلية من آلياته، للتمثيل والإنجاز"⁽⁴⁰⁾. تقابلها مفردات مثل: (راعي، مكاري، عبد، عري، دنس) وهي لا شك هي الأخرى كلمات نسقية، تحصر قيم الآخر المختلف ثقافياً وعرقياً في زوايا ضيقة، وتحجره كقيمة إنسانية وتضعه في منافي التهميش والإقصاء. يبدأ هذا النسق على شكل "نكرة دموية رحمية، ملازمة لنمو النوازع الأولية... ثم تستحيل، بفعل التطور إلى فئوية طائفية، دينية أو عرقية، تستمد نعتها لا من الدم فحسب، بل من الانتماء الديني أو المذهبي أو العرقي الفئوي أيضاً، ثم تستحيل إلى فئوية أيديولوجية تستمد نعتها لا من الشعور الديني أو المذهبي أو العرقي فحسب، بل أيضاً، من الرباط الفكري والانتماء الحزبي والعلاقة المترتبة على أي منهما"⁽⁴¹⁾، فالنص يمرر هذا النسق، من خلال الإغراق في الذات المستبدة، وقيامها بنفي الآخر القومي أو الديني وزواله وتنتفي واقعه الخارجي، إنها فكرة كما يسميها الغدامي (فوق / تحت)، (الثقافي / الثقافي) وهي "فكرة قديمة وهي نسق ثقافي ممتد ومستمر تتجدد لغته ويتجدد ممثلوه، لكنه موجود أبداً ويتوسل بوسائل عديدة للتعبير عن نفسه"⁽⁴²⁾، فنتيجة هذا الصراع الشعري تشعرون القيم الإنسانية وألغيت وحل محلها التطرف، والإلغاء، والتهميش. فظاهراً، يتجلى في نصوص بشار رفضه لقيم القمع والتهميش والإقصاء وهذا حق طبيعي يتمتع به الفرد للدفاع عن وجوده، وإضماراً يبدو أنه نسق متشعرون مسكوت عنه، هو نسق فحولي ذو رأي واحد وسلطوية فكرية وأحادية ثقافية، يصطنع فارقاً طبقياً بين الثقافات والأذواق والتقاليد، فنتيجة هذا المعطى النسقي، منح بشار أسلافه الحق المطلق بالوجود، ثم ينفي ذلك كله عن الآخر، حيث يظل الآخر عند بشار خطراً ودونياً ويجب تهميشه وإقصائه" فهما تجدد الغطاء الفكري إلا أن المضمّر يظل نسقياً وفحولياً وطبقياً، ويتصرف في عمى ثقافي تديره الأيديولوجية وتكتب له لغته"⁽⁴³⁾.

المحور الثاني: الارتداد عن السلطة (السياسية): يرتد بشار عن السلطة السياسية التي لطالما كان أحد أبقاها الدعائية، فقد حضرت تمثيلات الشعريّة كما مر بنا في المبحث الأول تمجيذاً وتعظيماً لها، إلا أنه هذه المرة يرتد لينقلب عليها، من ذلك هجاء المهدي⁽⁴⁴⁾. إذ قال:

يلعب بالدبوق والصولجان
ودس موسى في جر الخيزران

خليفة يزني بعمّاتيه
أبدلنا الله به غيرة

مرّ بنا من خلال البحث أن المهدي كان من ممدوح بشار فقد أضفى عليه كل الصفات النسقية التي جسدت نظرية (الرجل العظيم) كـ خليفة الله، الشجاع الكريم، البطل الأسطوري... الخ. إلا أنه هذه المرة يضعه بشار في موضع لا يُحسد عليه، فهو يمارس زنى المحارم ويؤدي العاب شعوبية وما يترتب على هذين العاملين من معطيات ثقافية. فما سبب هذا التحول؟ وما دوافعه؟ يرجع بعض الباحثين هذا التحول إلى سبب اقتصادي يتمثل في عدم إعطاء المال للشاعر من قبل الخليفة السلطة الممدوحة⁽⁴⁵⁾، إلا أن الأمر لدينا أبعد من ذلك، حيث نرى أن السبب في هذا التبدل (الارتداد) من قبل الشاعر أعمق، يقف وراءه دافع سيكولوجي نسقي لعل سببه حدوث جرح نرجسي لشخصية الشاعر، فالشعراء الفحول يخيل إليهم أنهم في منزلة تسمى منزلة الفوق لا يفارقها إلى منزلة تحت، فالشاعر يرى في عدم منحه المال سخرية من مكانته الثقافية، فيفسرها على شكل إهانة مما يدفعه إلى رد الإهانة بتمثلها غير مكثرث بالوقت نفسه بنتائج هذا التبدل وإن كلفه حياته، وهذا هي جدلية البنية النسقية، "فكثيراً ما تكشف أحداث التاريخ الكبرى أن الأيديولوجيا والقناعات الجذرية تتغلب على المصالح حتى أن المرء ليضحى بنفسه وهي أعلى مصلحة من أجل فكرته أو ما يقتنع به"⁽⁴⁶⁾، وكأما صار خيار جذري بين الأيديولوجيا/النسق وبين المصلحة ستتغلب الأيديولوجيا/النسق على المصلحة لأن المصلحة قيمة مادية متغيرة بينما الأيديولوجيا/النسق معنى جذري راسخ⁽⁴⁷⁾، فالبرغم من أن العامل الاقتصادي أساس من أسس الطبقة في المجتمع النسقي إلا أنه لا يعدو أن يكون رمزاً من رمزيات تقديم الطبقة أو الشخص لنفسه؛ فالمال لا يرتجى لذاته، بل لما يشكّله من رمزية تضمن له الثبات في مكانته الفحولية، وعدم التنازل عنها وهذا واضح جدا في شعر بشار في هجائه للمهدي،

فهو لم ينعته بالبخل أو الجبن، بل راح يضيف عليه صفات مهينة، بحيث يجعل الذات تتخذ مواقف دفاعية أو "ميكانيزمات دفاع: تعمل على أن تجعل إدراك الفرد متساقاً مع بناء الذات ويتم هذا عن طريق الإدراك الانتقائي" (48) وهي بمثابة تحقيق ضربة استباقية للخليفة لقبال المعادلة النسقية، وبمثابة تعويض للجرح النرجسي الذي أحدثه الخليفة للشاعر. لذا تسقط (الكاريزماتية) هذه المرة عند بشار تنظيراً وفعلاً، وتختفي أسطورة (الرجل العظيم) ذي السمات المتعالية في نهاية المطاف، وهذا النوع من السلوك يقود كما يرى دوركهائم إلى " الانتحار الأناني نتيجة عدم الانتماء، وعدم اعتراف الفرد بما هو أعلى من الذات الخاصة. وقد انتشرت هذه الظاهرة في المجتمعات التي تؤله الفردية وتمارس المنافسة والأنانية" (49) واعتماداً على رأي د. نادر كاظم: " إن من لا ينصوي تحت نسق هذه الثقافة، فإنه يبقى آخر شاذاً" (50)، ومن هنا أعتبر بشاراً شاذاً، وكان قتلُه هو الخيار الأخير أمام هذه الثقافة إذا أردت أن تتقي شر تعاليه وشر لسانه. (51) ، هكذا هي لعبة المجتمع النسقي، وهكذا هي نظرية الرجل العظيم تصنعه الشعوب النسقية فيشبعها قتلاً وتشرديداً، ثم ترتد عليه، لتبحث عن رجل (كاريزماتي) آخر يكمل ما أنهى عنده الأول. وينبغي الإشارة إلى أن بحثنا لا يتفق حول ما يُروى أن بشاراً قتلَه المهدي بسبب حادثة الأذان المزعومة أو زندقته (52)، ولا نرى هذه الحادثة إلا للاستهلاك الاعلامي، فيبشار ومن خلال شعره نرى أنه أذكى من أن يضع نفسه في هذا النوع من المأزق، إنما القتل كان سببه (تعالى نوات أو صراع أنساق) يتعالى بشار على عنوان السلطة (السلطة الالهية المنزهة) لطالما كان بشارا مساهما في صنعها. يتصارع الفحلان على حد تعبير الغدّامي فينتصر من هو أكثر فحولة. وهذا النوع من التعالي النسقي مثله بشار مع الكثيرين، ونلاحظ أن موقفه كثيراً ما كان يتبدل بين المدح والهجاء، فقد تقدّم أنه مدح العرب ثم انقلب عليهم بهجومهم؛ وربما كان بعض من هجاهم من أصدقائه المقربين، كواصل بن عطاء، فقد مدحه كثيراً إلا أنه ارتدّ عليه لمجرد شعر الشاعر بوجود تجريح لوجوده الثقافي من قبل واصل وراح ينعته بصفات مهينة (53).

الخاتمة

اتضح لنا أن الثقافة الجمعية وأنساقها الثقافية كانت المحرك الأساس لبشار بن برد فيما يتعلق بخطابه الشعري المتمركز، وأن نص شاعرنا كما أوضحت هذه الدراسة نص نسقي يتوسل بجماليات اللغة وتشكيلاتها الاستعارية المراوغة بغية بناء عوالم وفضاءات نسقية؛ وعلى ضوء هذه الرؤية يرى البحث أن رحلة شاعرنا كانت رحلة نسقية تمثلت بـ (التمركز والتهميش). فكان نسق التمركز العرقي أو ما يعرف بـ (المقاومة الثقافية) حاضراً في نصوص بشار، وقد سلكت هذه المقاومة أساليب ثقافية تمثلت بالارتداد عن الثقافة العربية وسلطاتها السياسية، وقد أخذ هذا الارتداد طرقات عدة: كالارتداد الزمني والارتداد العقائدي، وبالتالي قاده هذا الارتداد إلى ما يعرق بـ التمركز العرقي الفارسي، على حساب تهميش العرب وإقصائهم ثقافياً وهو نوع من الأخذ بالتأثر الثقافي، يحدث هذا غالباً في المجتمعات النسقية ذات الطابع الهوياتي، وكان من نتائج هذا التمركز من قبل شاعرنا على حساب تهميش العرب وسلطاتها السياسي أن تصفيته جسدياً وادسالات الستار على حياته الثقافية.

* المقاومة الثقافية: التي تنتج عن النشاط الواقعين في موقع أو في حال التقليل أو التصنيف الدوني، كنتيجة لسلوك ومنطق العناصر المهيمنة، ومن هنا يبني الهامشيون خنادق للمقاومة والدفاع عن وجودهم، على قواعد ومبادئ مغايرة أو مضادة لما هو عند القوى المهيمنة، وهذه هي سياسة انبثاق الهوية.

* لقد وضع الباحث في الفصل الأول من الرسالة أن الثقافة العربية الجمعية كانت تسير وفق نسقين ثقافيين هما: النسق الديني، والنسقي العرقي (العربي/ القبلي).

الهوامش

- 1) ينظر: النقد الثقافي من النص إلى الخطاب، سمير الخليل: 27، 28.
- 2) مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، حفناوي بعلي: 47.
- 3) ينظر: تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي، نادر كاظم: 97.
- 4) ينظر: النقد الثقافي، الغدّامي: 77.
- 5) ينظر: أسس السيميائية: دانيال تشاندلر: 315.
- 6) دليل الناقد الادبي: ميجان الرويلي، وسعد البازعي: 45.
- 7) أسس السيميائية: 315.
- 8) القبيلة والقبائلية، الغدّامي: 49.
- 9) ينظر: ميلاد مجتمع، مالك بن نبي: 44.
- 10) ينظر: المصدر نفسه: 45.
- 11) جدل الواقع العربي والصراع على الذات، محمد سعيد ريان: 147.
- 12) ينظر: أسس السيميائية: 316، 317.
- 13) ينظر: الانسان ومشكلاته المعاصرة، حسين يوسف: 53.
- 14) تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي: 500.
- 15) المصدر نفسه: 450.
- 16) الزندقة والشعبية، حسين عطوان: 151.
- 17) الاستلاب والارتداد، علي حرب: 21، 22.

- 18) ينظر: تمثيلات الآخر : 500.
- 19) المصدر نفسه: 450.
- 20) ينظر: تفاعل الثقافات، تزفتان تودوروف، مجلة فصول ، العدد2، المجلد12.
- 21) النقد الثقافي، الغدّامي: 215.
- 22) ينظر: المصدر نفسه: 215.
- 23) ينظر: ضحى الإسلام، أحمد أمين: 58.
- 24) انهيار العقل العربي، وفيق رؤوف: 139.
- 25) ضحى الإسلام: 59.
- 26) التخلف الاجتماعي سيكولوجيا الانسان المقهور، مصطفى حجازي: 179.
- 27) القبيلة والقبائلية : 36.
- 28) ديوان بشار بن برد: ج1: 389.
- 29) الاستلاب والارتداد: 23.
- 30) أوهام النخبة أو نقد المثقف، علي حرب: 73، 74.
- 31) الاستلاب والارتداد: 16.
- 32) القبيلة والقبائلية: 49.
- 33) النقد الثقافي، الغدّامي: 34.
- 34) نقد أدبي أم نقد ثقافي، عبد النبي صطيف ، ومحمد الغدّامي: 36.
- 35) النقد الثقافي، الغدّامي: 65.
- 36) ديوان بشار بن برد: ج3/ 229.
- 37) النقد الثقافي ، الغدّامي: 130.
- 38) أوهام النخبة أو نقد المثقف: 75.
- 39) الانسان المهودور دراسة تحليلية نفسية اجتماعية، مصطفى حجازي: 55.
- 40) ينظر: المصدر نفسه: 55.
- 41) العصبية بنية المجتمع العربي: عبد العزيز قباني: 45.
- 42) الثقافة التلفزيونية، الغدّامي: 143.
- 43) المصدر نفسه: 143.
- 44) ديوان بشار بن برد: ج4/ 207.
- 45) ينظر: السلطة السياسية والشاعر في العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير: 210.
- 46) القبيلة والقبائلية: 54.
- 47) ينظر: المصدر نفسه: 55.
- 48) الاغتراب النفسي والاجتماعي وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي، صلاح احمد الجماعي: 106.
- 49) الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الانسان بين الحلم والواقع: 44.
- 50) تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي: 535، 536.
- 51) المصدر نفسه: 536.
- 52) ينظر: كتاب الأغاني: ج3: 244.
- 53) ينظر المصدر نفسه: 145.

المصادر

- 1) النقد الثقافي من النص الادبي إلى الخطاب، د. سمير الخليل، دار الجواهري، بغداد، ط1، 2013.
- 2) النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، د. عبد الله الغدّامي، المركز الثقافي العربي، ط3، 2005.
- 3) مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، د. حفناوي بعلي، الدار العربية للعلوم، ط1، 2007.
- 4) تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي في العصر الوسيط، د. نادر كاظم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004.
- 5) دليل الناقد الادبي، د. ميجان الرويلي، د. سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، ط2، 2002.
- 6) أسس السيميائية، دانيال تشاندلر، تر: طلال وهبة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت ، 2008.
- 7) القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، عبد الله الغدّامي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2009.
- 8) ميلاد مجتمع، مالك بن نبي، ج1، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق سورية، ط3، 1986.
- 9) جدل الواقع العربي والصراع على الذات، محمد سعيد ريان، مركز الحضارة العربية ، ط1، 2009.
- 10) الانسان ومشكلاته المعاصرة، الآخر، الاغتراب، الانتظار، حسن يوسف، دار أجيال القاهرة ، ط1، 2008.
- 11) الزندقة والشعبوية في العصر العباسي الاول، د. حسين عطوان، دار الجبل بيروت. ب ط، ب ت.
- 12) الاستلاب والارتداد بين روجيه غارودي ونصر حامد أبو زيد، د علي حرب، المركز الثقافي العربي، ط1، 1997.

- 13) تفاعل الثقافات، تزفتان تودوروف، مجلة فصول، العدد2، المجلد12، 1993.
 - 14) ضحى الاسلام، د احمد امين، دار الكتاب العربي، بيروت، ج1، ط10.
 - 15) انهيار العقل العربي المسألة وما بعد، د. وفيق رؤوف، منتدى المعارف، بيروت، ط1، 2011.
 - 16) التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الانسان المقهور، د مصطفى حجازي، المركز الثقافي العربي ، ط9، 2005.
 - 17) ديوان بشر بن برد، جمع وتحقيق وشرح: الشيخ، محمد الطاهر بن عاشور، وزارة الثقافة الجزائر، 2007.
 - 18) أو هام النخبة أو نقد المثقف، د. علي حرب، المركز الثقافي العربي، ط4، 2008.
 - 19) نقد ثقافي أم نقد أدبي، د. عبد الله الغدّامي، د. عبد النبي اصطيف، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 2004.
 - 20) الإنسان المهودور دراسة تحليلية اجتماعية نفسية، مصطفى حجازي، المركز العربي الثقافي، بيروت لبنان، ط1، 2004 .
 - 21) العصبية بنية المجتمع العربي، عبد العزيز قباني، دار المعارف، بيروت، ط1، 1997.
 - 22) الثقافة التلفزيونية سقوط النخبة وبروز الشعبي، د. عبد الله الغدّامي، المركز الثقافي العربي، ط2، 2005.
 - 23) السلطة السياسية والشاعر في العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير ، حيدر جبار عطية، كلية التربية للعلوم الإنسانية جامعة بابل، 2014.
 - 24) الاغتراب النفسي والاجتماعي وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي، صلاح الدين أحمد الجماعي، مكتبة مدبولي، ط1، 2008.
 - 25) الاغتراب في الثقافة العربية مآهات الانسان بين الحلم والواقع د . حليم بركات، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1، 2006.
-